

الأدب في التاريخ الآرامي القديم

د. محمد حرب فرزات
جامعة دمشق

مقدمة :

أولاً : إنه من الطبيعي ألا يفهم من الأدب في زمن الأدب الآرامي القديم ما يفهم منه في عصرنا ، فلا ينبغي لنا أن نبحث هنا عن الكاتب الملتزم بالعمل الأدبي من أجل تحقيق انجاز فني رفيع ، لأن مفهوم الأدب في ذلك العصر كان يعني الثقافة العامة والتعليم ، فكلمة «إدب» الأكديّة – التي ربما جاءت منها كلمة أدب العربيّة – كانت تعني المكتبة والمدرسة « بيت الألواح » ، وما كان يسعى إليه الكاتب شيرا = Sapra هو أن يقدم بشكل جميل وجذاب العناصر الثقافية اللازمة التي تساعد على تكوين الكتاب الموظفين .

ولكن هذا لا يعني بالضرورة استبعاد الجمالية في الأدب ، لكنه يبقى أدبا عمليا ، من أجناسه كتابة الحوليات التاريخية^(١) وأجناس أخرى كالرسائل والشعر والنثر والقصة والأمثال وغير ذلك . . ولا بد أنه كان للكتاب الآراميين العاملين في دواوين القصور وفي خدمة المعابد فرص الاطلاع على الآداب المعاصرة والموروثة من الأكديّة ومن المصرية والفينيقية ، وهذا ما يفسر لنا التشابه الكبير بين موضوعات الأدب الآرامي وموضوعات الآداب القديمة الشرقية الأخرى .

ثانياً : نعني بالأدب الآرامي القديم ما كتب بالآرامية القديمة ، أي حتى ظهور المسيحية ونشوء الأدب السرياني . ولا نعني بالأدب الآرامي كما يجب أن يرى بعض

الكتاب آداب آرام ، لانه وجدت في بلاد ارام (سورية القديمة) اداب اخرى غير ارامية كتبت بالاكديّة المسمارية ، وبالاوجاريتية والكنعانية .

فهذا اذن بحث في ادب قديم ، بل انه بحث في تاريخ هذا الادب الارامي القديم . نحاول فيه تقصي جذور الحياة الادبية في مرحلة قديمة من تاريخ سورية سبقت انتصار اللغة العربية وادابها وثقافتها ، ونسعى الى التوصل الى شواهد من ادب قوم من الاقوام العربية القديمة ، ومن الاعمال الادبية لاجيال عاشت على هذه الارض العربية وانشأت ثقافتها عليها وجعلت لغتها اهم لغة في تاريخ البلاد حتى اواسط القرن السابع للميلاد . واذا لم يمتد التاريخ الارامي السياسي اكثر من قرون معدودة وبخاصة ما بين القرنين العاشر والثامن ق.م ، فان الثقافة والاداب التي احتوتها اللغة الارامية بلهجتها وعصورها المختلفة استمرت قرونا عديدة وامتد عمرها اكثر من الف وخمسمائة العام . ولئن تراجعت هذه اللغة منذ قرون عن دورها الاول في المنطقة امام تقدم اللغة العربية ، لغة الحضارة العربية التي استوعبت واحتوت ، عن طريق النقل والترجمة والتعريب والتفاعل الحضاري ، الثقافات المحلية السابقة للاسلام : الهلينية المتأخرة (البيزنطية) ، والفارسية والسريانية (في سورية وارض الرافدين) والقطبية (في مصر) والعبرية ايضا ، وغرقت من كل الثقافات القديمة ، فان هذه الثقافات بلغاتها الخاصة ، ومنها السريانية ، بقيت اداة من ادوات المعارف والاداب الى جانب العربية ايضا حتى تقلص دورها بالتدريج واقتصر اخيرا على التعليم الديني لمئات الالاف من الناس ، في سورية والرافدين والجزيرة وايران .

هذا من حيث موقع الادب الارامي على مدرج الزمن . لكن هناك ، في تصوري . مسائل اخرى قد تطرحها ترسبات الارامية بكونها لغة وثقافة . بمعناها الواسع ، في بحر الثقافة العربية الشاملة . وهذه المسائل قد يمكن تناولها من زاوية النظر اللغوية لمعرفة ما في العربية من الارامية (٢) . وهذا مما يدخل في ايماننا هذه في علوم اللسان . وقد يمكن تناولها من زاوية النظر في الاتصال الحضاري الثقافي في الوطن العربي . وهذا مما يدخل في ميدان تاريخ الادب والاداب المقارنة . وعلى سبيل المثال ربما يجوز الزعم باننا قد يمكن لنا ان نفهم المعري اكثر لو اننا تعرفنا على تراث لوقيانوس السميساطي صاحب « حوار الموتى » وربما يمكن للمؤرخ ان يتنبه الى امور فاته الانتباه اليها لو انه رجع الى ميخائيل السوري وابن العبري السرياني الى جانب رجوعه الى ابن الاثير وابن العديم وابن القلانسي عند البحث في احداث بعض الفترات الحرجة من التاريخ العربي .

بهذا الاعتبار يكون للبحث في الادب الارامي القديم بعض الجدوى والمؤدى ، في

الوقت الذي نرى فيه الى محاولات مفتصبي الارض العربية في فلسطين وهم يعملون على سلب التراث الشعبي والفني ويتناولون ايضا على التراث الحضاري للمنطقة لينسبوه الى انفسهم ، وليدعوه لتاريخ خاص بهم طالما ان هذا التراث مهمل من اصحابه متروك ومستنكر من اهله واربابه .

لكن البحث في الادب الارامي القديم له **صعوباته** التي لا بد للباحث من الاعتراف بها قبل التصدي لمواجهتها والعمل على محاولة تذليلها . فخلافا لما هو معروف عن اللغات المصرية والسومرية والاكديّة والواجارية والحثية ، فان اللغة الارامية القديمة لم تترك لنا اثارا او نصوصا يمكن وصفها مباشرة بأنها نصوص ادبية ، باستثناء نص واحد هو نص احي يقر (احيقار) ، الا انها كانت لغة الحياة اليومية العامة للمشرق القديم من الفرات الى النيل منذ الالف الاول ق.م . ، واضحت لغة الادارة والتجارة في كل انحاء المملكة الكلدانية ، وفي الامبراطورية الفارسية لمدة قرنين ما بين القرنين السادس والرابع ق.م . قبل ان يقتحم الغرب الكلاسيكي ابواب وعواصم حضارات النيل والعاصي والاردن والفرات . هكذا اضحت لغة المغلوبين لغة الغالب . اما اهم النصوص الارامية التي تعود الى ما يدعى بارامية الامبراطورية ، فقد وجدت في مصر التي يمكن مناخها من حفظ الوثائق المنقوشة على النحاس او المكتوبة على لفائف البردي او على كسرات الفخار .

إننا من خلال هذه المصادر الباقية سنحاوللقاء الضوء على بعض ملامح الادب الارامي القديم . ولكننا سنتحدث بايجاز عن الاراميين قبل ان نتحدث عن ادابهم .

١ - من هم الاراميون ؟

الاراميون هم من الاقوام العربية القديمة . يرجعون بأصولهم الى قبائل بدوية عاشت وتنقلت في البادية العربية الشامية . وبخاصة ما بين سلسلة الجبال التدمرية وجبل بشري ، قبل ان تستقر على ارض الرافدين وبلاد الشام في النصف الثاني من الالف الثاني ق.م .

على ان اهم ما كان يوحد هذه الاقوام ويربط فيما بينها على تعددها وتفرقها هو اللغة الارامية بلهجاتها المختلفة التي تحتل في تاريخ اللغات العربية القديمة محلا وسيطا بين اللغة الاكادية ، اقدم لغة عربية مكتوبة ، وبين اللغة العربية . فهي لم تكن لغة لاجيال من الناس وللدول قامت ودالت على ارض الشام والرافدين وحسب ، بل كانت لغة حضارة وثقافة ، حتى تغلبت على العبرية وحلت محلها فاستخدمت لكتابة سفرين

اثنين من اسفار التوراة (دانيال وعزرا) ثم شروح التوراة والتلمود (الجمارا) ،
واضحت لغة رسمية في دولة كبرى . وعندما ظهر السيد المسيح كانت الارامية لغة
الناس في فلسطين وسائر سورية فخاطبهم بها وحدثهم ووعظهم وعلمهم .

اما المصادر التي مكنت من اعادة تكوين التاريخ الارامي فهي متنوعة يمكن حصرها
في ثلاث مجموعات :

أولاً - اشارات الى الاراميين في اسفار العهد القديم التي بقيت الى جانب
الاخبار المتواترة والمرويات في تقاليد المنطقة المصدر الاساس للتاريخ الارامي حتى ظهور
نتائج التنقيبات الاثرية منذ اواخر القرن الماضي .

ثانياً - اشارات الى الاراميين في المصادر الاشورية والبابلية ، يمكن الرجوع
اليها في الحوليات ومجاميع الوثائق والنصوص المسمارية .

ثالثاً - النقوش الارامية التي تعود الى مطلع الالف الاول ق.م ، والوثائق
الارامية التي تعود الى النصف الثاني من الالف الاول .

وقد فتحت هذه المجموعة الاخيرة من المصادر ، وهي المصادر الارامية الاصلية ،
ابواباً جديدة لاعادة النظر في كل ما يخص التاريخ الارامي وتطور تاريخ المنطقة كله .

ويقر كاتب سفر التكوين بقدوم الاراميين وسبقهم العبريين في الاستقرار والحضارة
في مناطق الجزيرة (حرّان) ويشير الى تحركات قبائلهم وعلاقاتهم الاجتماعية
ومصاهراتهم . واذا ما كانت الشكوك مطروحة حول اصول العبريين ومنشأهم قبل
الخروج وبعده ، فان التوراة نفسها في سفر الخروج تعترف بمنشأ الاراميين العربي
من البادية العربية الشامية ، التي تحركوا منها فيما بعد نحو بلاد الشام (٢) كلها .

ويرد ذكر قبائل الاخلامو الارامية على الفرات لأول مرة في وثيقة بالاكديّة من
رسائل تل العمارنة في صعيد مصر تعود الى القرن الرابع عشر ق.م . ولكن بعد حوالي
نصف قرن آخر نجد اثار هذه القبائل على ضفاف نهر دجلة .

اما المصادر الاشورية فتلاحق الاراميين بعد ذلك وتتحدث عن طردهم وتعقبهم الى
منطقة الخابور وحوض الفرات الاوسط (٤) . وقد ورد ذكر الاراميين لأول مرة بعد ذلك
في وثائق بالمسمارية الاشورية تعود الى حكم تكلات بلاصر الاول ملك اشور (١١١٦ -
١٠٣٦) الذي يتباهى بتوجيه ثمانية وعشرين حملة ضد الاخلامو والاراميين على طول
جبهة امتدت من الفرات الاوسط الى تدمر (٥) .

وعلى الرغم من هذه المقاومة الاشورية العنيفة للانتشار الارامي فقد نجحت القبائل الارامية منذ القرن الثاني عشر ق.م في تأسيس امارات وممالك ودول حول مراكز مهمة عديدة في سورية وبلاد الرافدين ، قامت بعدئذ بدور مهم جدا سياسيا وعسكريا واقتصاديا خلال النصف الاول للالف الاول ق.م ، فقد سيطر الاراميون على معظم البلاد السورية من الجزيرة الى العقبة ، واقاموا مملكة بيت عديني وعاصمتها تل برسيب (تل احمر) على ضفتي الفرات جنوبي كركميش (جرابلس) . أما في وادي الخابور فقد أنشأوا عددا من الامارات أهمها بيت بخياني التي حلت محل غوازنا الحثية حول تل حلف قرب رأس العين ، بينما سيطرت قبيلة التيمانين : التي ربما يعود أصلها الى تيماء في شمالي نجد ، على مناطق نصيبين وماردين وانتشرت حتى وصلت شمالا الى هضاب طور عابدين ، ثم توغلت قبائل ارامية اخرى غربا حتى وصلت الى سفوح جبال حمانو (امانوس) وسهول كيلكية واستقرت في شمال (زنجلي) .

وقامت اهم مراكز الاستيطان الارامي في مناطق حلب حيث قامت اثنتان من اهم الممالك الارامية : بيت اجوشي في حوض نهر قويق ومقرها في أرفاد ، ومملكة حماة على العاصي . ولكن اهم نجاح للاراميين كان في استقرارهم في سورية الوسطى حول وادي البقاع وعلى سفوح جبال لبنان الشرقية . حيث تأسس عدد من الممالك والامارات الصغيرة في صوبة (عنجر) في البقاع الادنى وفي بيت رحوب وبيت معكة وجشور بين حوض اللبطني وبنابيع الاردن عند بانياس وتل القاضي ، كما برزت مملكة دمشق عند واحة دمشق التي تمتاز بموقعها الفذ على حافة البادية العربية . وقد استطاع تحالف هذه الممالك الارامية الجنوبية بزعامة صوبة (عنجر) في الربع الاخير من القرن الحادي عشر ان ينشئ اتحادا سياسيا عسكريا انضم اليه بعدئذ العمونيون وآراميو الفرات للوقوف بوجه توسع تحرك قبائل اخرى بقيادة الملك داود . ولكن المصادر التوراتية هي الوحيدة التي تحدثنا عن هذا الصراع . ولما يعثر بعد على اية وثائق ارامية حول هذا الموضوع . ثم انتقلت زعامة العالم الارامي الى دمشق التي استطاعت بزعامة القائد رصين ان تقود كفاحا مريرا وطويلا لتوحيد البلاد سياسيا واقتصاديا حتى حققت اكبر قدر من النجاح بقيادة الملك حزائيل الذي امتد نفوذه الفعلي من الفرات شمالا الى العقبة وغزة جنوبا ، فاتحا طرق القوافل التجارية نحو مصر والحجاز .

وامام هذا التقدم الآرامي في الجنوب كان التراجع في الشمال بعد انتصارات الاراميين المؤقتة . حتى بدت آشور كأنها محاصرة من كل جانب ولم يعد لها منفذ على البحر بعد تحكم الاراميين بطرق المواصلات بين الفرات والبحر المتوسط . لقد دلت آشور نتيجة لهذه التطورات في مرحلة من التقهقر والضعف بعد الازدهار والقوة اللتين

شهدتهما في النصف الاول من الالف الثاني ق.م . عندما كانت طرق التجارة في المشرق العربي مفتوحة امام القوافل الآشورية نحو الاناضول او نحو وادي العاصي الاسفل . وفي خضم الصراع ، برز الجيش الآشوري كالعمود الفقري الذي نهض به جسم المجتمع الآشوري امام التهديد الآرامي ، وظل هذا الجيش ذراع الثأر لاستعادة حدود البلاد وللتخلص من الفقر والبؤس عندما توقفت التحركات والهجرت وتعزز المجتمع الآشوري بالحكومة المركزية القوية ، في حين أخفق الآراميون في إنشاء مملكة مركزية . وان نجحوا احيانا ، حسب الظروف ، في اقامة اتحادات مؤقتة او أحلاف فيما بينهم للتصدي للحملة الآشورية المتكررة .

وعندما استفاقت آشور من غفوتها ونهضت من كبوتها نشب ذلك الصراع الرهيب الدامي الطويل بين آشور وآرام ، وانتصرت آشور واحتوت بجناحيها العالم الآرامي بعد صراع استمر اربعة قرون (٦) . فقد تساقطت الممالك الآرامية الواحدة بعد الاخرى أمام ضربات الجيش الآشوري المتلاحقة : سقطت ارفاد في ٧٤٠ ق.م ثم سقطت دمشق ، الحصن الاخير للعالم الآرامي وآخر الدول الآرامية المستقلة في ٧٣٢ . وقد تابع الزعماء الآراميون في بابل مقاومتهم لآشور ونجحوا في انشاء امارات وممالك صغيرة ، كانت فعالة احيانا لكي تحمل بعض عواهلها الى عرش بابل مثل مردوخ ابال إدّينا . واخذ العالم الآرامي يندمج في العالم الآشوري ليغدو هذا الاندماج في الدولة القائمة اقوى وأشد وضوحا في الدولة الكلدانية . لقد استمرت المجتمعات الآرامية محتفظة بكياناتها وبهويتها الثقافية المتمثلة في لغتها في ظل الممالك الكبرى والدول الفاتحة ، من الفرس الى الاسكندر والمملكة السلوقية حتى الرومان والبيزنطيين ، الى ان جاء العرب الفاتحون المحررون في القرن السابع الميلادي .

٢ - الادب الآرامي حتى القرن الخامس ق.م .

عندما ظهر هؤلاء الآراميون على مسرح الاحداث في المشرق القديم لم تكن لهم لغة مكتوبة أو أدب . كانوا في غالبيتهم قبائل بدوية ، ومن المرجح ان الامراء الذين استقروا في مراكز الحكم الجديدة بنوا اللغات السائدة في المناطق التي استقروا فيها ، فبقيت الاكدية الآشورية في بعض المناطق الشمالية واستخدمت الآرامية الى جانبها ، كما نلاحظ . ذلك في نص تل فخيرية (القرن التاسع) المنقوش بالآشورية والآرامية (٧) ، بينما استخدمت الآرامية الى جانب الكنعانية / الفينيقية في يهوديا / شمال . لكن ما عت لغة الفاتحين المنتصرين حتى تطورت بسرعة ووضحت لغة للكتابة والادب والنقوش التذكارية .

كانت الآرامية هي اللغة التي حملها الفاتحون من موطنهم الأصلي ، من منازل فبائلهم في البادية العربية التي عاشوا فيها قرونا طويلة قبل استقرارهم .. وتنتمي هذه اللغة الى أسرة اللغات العربية القديمة السامية وهي لغات شعوب واقوام الجزيرة العربية شمالها وجنوبها وهي بالاساس الاكدية والكنعانية والارامية واخيرا العربية ، اقوى هذه اللغات واغناها ، والتي استوعبتها اخيرا واحتوتها . كان لهذه اللغة الارامية بفروعها المختلفة مقوماتها الاساسية في بيئتها الاصلية عندما كانت لغة اقوام بدوية ، لكنها تلقت مفردات لغات الحضارات المجاورة لها والمتعاملة معها كالاكدية والكنعانية والمصرية (٨) .

إن قدرة اللغة الارامية على الاستيعاب والنمو والتلقي جعلها لغة حية تطورت من لغة مجمع بدوي الى لغة مجتمعات مستقرة عاشت وتطورت وبقيت لغة الثقافة والتجارة والادارة والفكر والادب عهدا طويلا تقرب من ألفي عام ، الى ان أخذت تراجع امام اللغة العربية التي حملت لواء الحضارة العربية المتجددة في القرن السابع .

لقد عاشت الارامية طويلا خلال العصور القديمة لانها كانت قادرة على التلاؤم مع مقتضيات التطور الحضاري . ولقد برهنت هذه اللغة على قدرتها وعلى توفر عناصر القوة فيها في انتصارها على لغات كانت حية قبلها كالاكدية والحثية ، ولقد اوضحت الارامية لغة شعوب كثيرة غير آرامية بالاصل ؛ اوضحت لسان الاشوريين والبابليين (الكلدانيين) والعبريين . كما استخدمتها شعوب فارسية قديمة وكتبت بها كتبها الدينية ..

ولا بد أن الآرامية كانت لغة مزدهرة في بلاط الملوك الذين رعوا الحياة الفكرية في قصورهم وعواصمهم ، كدمشق وأرصاد وحماة وشمأل . ولا بد انهم فعلوا كما فعل الآشوريون من معاصريهم فأمروا الكتاب بكتابة الحوليات الملكية والقصص والملاحم والانشيد والحكم والامثال .

لقد بقيت دمشق مركز الثقل في العالم الارامي مدة تزيد على قرنين ، من القرن العاشر الى القرن الثامن قبل الميلاد ، اخضعت دولا كثيرة من كيليكية الى البادية ومن الفرات الى البحر المتوسط ومدت نفوذها الى غزة ، بوابة التجارة مع مصر ، والى العقبة - ايلة ، المحطة الهامة على طريق التجارة الى الحجاز واليمن ، وافتتحت اسواقا في مدن فلسطين الكبرى على الرغم من الكيانات الدينية المحلية لاسرائيل ويهوذا خلال القرن الثامن . فاذا كان حال آرام على هذه الدرجة من القوة السياسية والاقتصادية ولهم مثل هذه اللغة القوية الحية ، اليس يفترض ان يكون لهم في لغتهم ما يوازي في

الادب العبري المعاصر آداب الرواة اليهوديين والايلاهيميين الموروثة عن آداب مصر وكنعان... وهل يعقل ان يظهر في العبرية ، وهي بصورة ما لهجة محلية كنعانية ، حكماء وشعراء مثل عاموس واشعيا وغيرهما ، ولا يكون للآرامية شعراؤها وحكماؤها، وهي اللغة التي ورثت في موقعها الحثية والكنعانية والاكادية العمورية ، واضحت لغة مجتمعات ودول اكبر واعظم واقوام اكثر عددا واطول يدا رباعا ؟ .

ويجب الاستاذ أندره دويون - سومر على مثل هذه التساؤلات بقوله : « انا نعتقد ان اللغة الارامية عاشت عشرها الذهبي في القرون التي امتدت من القرن العاشر الى الثامن ق.م ، أي في العصر الذي بلغت فيه الدول الارامية اقصى قوتها(٩) » .

ولكن نصوص الادب الارامي القديم من تلك المرحلة المبكرة تلفت كلها وبالإسف ، لان تلك النصوص كانت تكتب على اوراق البردي الذي لا يقدر على مقاومة عوامل الجو الرطب في سورية بينما بقي الكثير من البرديات في مصر لاماكان الاحتفاظ بها طويلا في جو جاف كجو صعيد مصر . ولقد لحق الادب الكنعاني الفينيقي ما اصاب الادب الارامي القديم ، ما عدا الادب الوجودي الذي بقي منه ما نقش على الواح من الطين . وربما كان من الممكن ان يكون مصر الادب العبري كذلك بعد قضاء الاشوريين على مملكة اسرائيل وقضاء الكلدانيين على مملكة يهوذا ، لولا حفظ هذا الادب في كتاب . ذلك ان المجتمع اليهودي الذي عاد بعد السبي من بابل بمساعدة ملوك الفرس ، عمل بجهود حكمائه وكتابه على جمع نصوص التراث العبري التاريخي والديني والادبي في كتاب على يد النبي عزرا ، ثم قام الكتاب والخطاطون بنسخ النصوص المحفوظة جيلا بعد جيل ، ثم قاموا بشرحها ونسخها وحفظها بعيدا عن الاخطار كما في مكتبة طائفية الايسينيين الذين حفظوا مكتبتهم ، عند الخطر ، في مغاور وكهوف قمران على مقربة من البحر الميت بعد تصنيفها في ملفات ضمن جرار من الفخار(١٠) .

ولكن شيئا من هذا لم يحدث في العالم الارامي . فالدول الارامية سقطت امام التوسع الاشوري الواحدة بعد الاخرى ، وتقوضت اركانها بسقوط مملكة ارام دمشق عام ٧٣٢ ق.م . ولم تقم للدول الارامية قائمة بعد ذلك . ولذا لم يشهد الادب الارامي القديم اي انبعاث واندماجت الحياة الثقافية للمجتمعات الارامية في حياة شعوب المنطقة ودولها في ظل اشور وبابل وامبراطورية فارس ، الى ان حدث التغير الثقافي الكبير باقتحام الحضارة اليونانية قلاع المشرق العربي مع الاسكندر . وبعد سقوط مراكز الثقافات القديمة نصبت على بوابات المشرق منارات للفكر اليوناني : انطاكية واللاذقية وافاميا في سورية والاسكندرية وبيرنيقه في مصر ، واعقب ذلك الاجتياح الروماني الذي ضم العالم العربي القديم بقوة النار والقانون الروماني (قرطاجة وتدمر)

الى المحيط الثقافي الهليني - الروماني لامتد طويل استمر حتى الفتح العربي الاسلامي في القرن السابع .

لقد غرق التراث الارامي القديم وضاع في غياهب الزمن وان بقيت منه صور ونف حملتها اداب العصور التي تلت في اداب الفرس واليونان . ثم ترددت في الاداب السريانية . وهي اداب المجتمعات الارامية المسيحية في سورية والمشرق العربي القديم ، اصداء الماضي وأخباره وقصصه وأمثاله وأسماء اعلامه . ويعود الفضل الى علم الآثار في الكشف عن بعض آثار هذا الماضي ، وفي العثور على بعض النقوش ، وهي نصوص محفورة على الحجارة والانصاب التذكارية ، في انحاء مختلفة من سورية: كيليكية وحلب والخابور وحماة ودمشق وغيرها . مما يسمح للباحثين المختصين بتكوين فكرة واضحة عن اقدم عصور الادب الارامي ولغته وخطوطه .

لنقدم الان بعض الامثلة :

في اواخر القرن التاسع اوائل القرن الثامن ق.م تمكن (زكر) (١١) ملك حماة ولعش (وهي منطقة في محافظتي ادلب وحلب الان) من صد تحالف قاده ضده ملك دمشق برهدد ، فأقام لتخليد ذكرى هذا الانتصار نصبا تذكاريًا نقش عليه واحد من اقدم النصوص الارامية المعروفة . يرفع الملك يديه الى السماء مسبحا رب السموات (بل شمين) شاكرًا نعماءه على مساعدته في تخليص مقره في حزر (ك) (ربما كانت أريحا) من حصار مميت ضربه حوله المهاجمون المتحالفون :

لنقرأ النص اولا بالارامية بعد ان نقلناه من مصادره الى الحرف العربي (١٢) .

- ٢ - انه زكر ملك حمت ولعش . إش عني انه [حصل
- ٣ - [ن] ي بل شمين وقم عمي وهملكني بل شمين ب [
- ٤ - [ح] زرك وهو حد علي بر هدد بر حزل ملك أرم -
- ٥ - شة [عسر ملكين بحزر ك .
- ٦ - وشمو كل ملكيا إل مصر على حزر [ك]
- ٧ - وهرمو سر من سر حزر ك وهعمقو حرص من حر [صه]
- ٨ - وإشي يدي إل بل شمين ويعيني بل شمين [ويومر] .
- ٩ - [لي] بل شمين إل ترحل كي انه همل [كتك] وانه ا
- ١٠ - قم عمك وانه أحصلك من كل ملكيا . .

إن مقارنة بسيطة بين مفردات هذا النص وبين العربية توضح لنا بجلاء مدى التشابه في اللفظ والصرف مما يدعو الى استنتاج النتيجة المنطقية وهي اننا امام لغة من اللغات العربية القديمة .

هملكني : املكني ، هي صيغة أفعّل جعلني ملكا .

هوحد : وحد .

عهمقو : حفروا بعمق عمقوا ،

يعيني : يعينني

إل تزحل : لا تزعل ، وزعل بالعربية الفصحى ، تألم وغضب .

انه اخلصك : انا اخلصك ، الحق بك لاخلصك

اما اذا نقلنا النص الى العربية ، عربيتنا ، فيكون كما يلي :

انا (زكر) ملك حماه ولعش إني انسان معني ،

خلصني رب السموات (بعل شمين) وقام معي ،

وجعلني بعل شمين ملكا على (حزرك) .

حينما وحد برهدد برحزئل ملك ارام ضدي ستة عشر ملكا ،

جاؤوا جميعا وضربوا الحصار حول حزرك ،

رفعوا سورا على من سور حزرك ،

حفروا خندقا على من خندقها ،

عندئذ رفعت يدي داعيا بل شمين ،

فأعانني بعل شمين ،

وكلمني بعل شمين بلسان العرافين والمنجمين ،

قال لي :

لا تزعل لانني انا الذي جعلك ملكا ،

وانا اقوم معك .

انا الذي يخلصك من كل هؤلاء الملوك الذين ضربوا الحصار على مدينتك .

نستطيع القول ان هذا النص لا يخفى بما فيه من تكرار وايقاع وعمق المشاعر

الدينية والعاطفية العميقة من نبرة شعرية تذكر برثاء المدن والبكاء على اطلالها في الادب العبري التوراتي فيما بعد .

لنعرض الان مثالا آخر :

انه نص مختلف تماما ، منفوش على الحجر ومعروف انه نصب من انصاب سفيرة (١٢) الواقعة الى الجنوب الشرقي من حلب ، وهو مقطع من نص عهد عقد بين ملك ارفاد متع ال بن عتر سمالك وبرجايه ملك كتك . وقد جعلت الارباب شهودا لتوثيق العهد وصبت اللعنات على من يجترىء على نقضه او على الحنت باليمين .

« واذا ما نقض متع ال بن عتر سمالك ملك ارفاد العهد لبرجايه ملك كتك :

واذا ما نقض أحد من عقب متع إل العهد لاحد من عقب برجابه ملك كتك .»

لتلقح سبعة كباش نعجة فلا تحمل .

ولتمسح سبع مرضعات حلمات ائدائهن وليرضعن رضيعا فلا يشبعنه .

ولترضع سبع افراس مهرا فلا تشبعنه .

ولترضع سبع بقرات عجلا فلا تشبعنه .

ولترضع سبع نعاج حملا فلا تشبعنه .

ولئن خان متع إل برجايه وابنه وعقبه فلتكن مملكته مملكة قائمة على الرمال ومملكة كاطفات احلام تنطفئ كما تخدم جذوة النار .

ولينشر الرب هدد فوق ارفاد كل ما على الارض وما في السماء من شر ولينشر فوقها كل ما عنده من آلام .

وليرمها بما عنده من برد كالحجارة .

وليلتهم الجراد زرعها سبع سنين .

ولياكل الدود ثمرها سبع سنين .

وليعم القحط فيها فلا نبت عليها عشب .

ولا ظهرت على وجه ارضها خضرة .

وليصمت في ارفاد صوت القيثارة .

وليسمع في اهلها صراخ المرضى وانينهم .

وعويل القوثى ومراثي الموتى وشكاوى المعوزين ،
ولتستحل ارض ارفاد الى صحراء وبنيانها الى كوم من الانقاض ..

الا تتضح من هذا النص روح العصر المتسم بالتشاؤم والذعر والخوف من
المستقبل ؟ الا يذكرنا بمواعظ النبي اشعيا التي كتبت بعده وبخاصة ما يسرد في
الاصحاحين الخامس والثاني والثلاثين ، عن تنبؤاته بمصير مدن فلسطين ..

وفي نص اخر من اواسط القرن الثامن يتحدث الملك برركوب (١٤) عن ذكرى
ابيه بانامو ومآثره في مملكته الواقعة على سفوح جبال الامانوس وكانت تمتد على
اراضي كيليكية والاسكندرونة :

« القمح والشعير والتعاج والابقار كلها كانت وفيرة في أيامه ،

عندما أكل اهل يادي (شمال) وشربوا .. كان ابي ملكا قديرا بين الملوك ، كانت
له اراض شاسعة وعربات حربية ،
كان مالكا للفضة والذهب .. »

ثم يتحدث برركوب عن علاقة شمال بمملكة آشور وولائه لها . ويبدو هذا النص
وكانه صفحة من صفحات الحوليات التاريخية الرسمية ويرتفع الاسلوب الادبي به
احيانا بما فيه من مبالغة وتصوير واقعي للبطولة والانتصار الى مستوى الملحمة .

ويبرز هذا الانطباع بدرجة اشد عندما يتحدث برركوب عن نفسه وعن منجزاته
في نص اخر (١٥) لا يخلو من بلاغة ومسحة ادبية ..
وفيما يلي مقتطفات من هذا النص :

« أنا برركوب بن بانامو ملك شمال .. »

بصدق ابي وبصدقى اجلسني الربم ركب ال بتاييد سيدي تكلات بلاصر على
كرسي ابي ..

وعمل بيت ابي اكثر مما عمل اي بيت آخر .

وقبضت على زمام الامر في بيت ابي وجعلته مزدهرا أكثر من أي بيت من بيوت
الملوك الاقوياء .

وغبطني اقراي من الملوك على ما أحرزه بيتي من الازدهار ،

واخواني من ملوك شمال لم يكن لهم قصر جميل كقصري ..

كان لهم قصر كيلامو . .
كان لهم قصر الشتاء وكان لهم قصر الصيف .
لكنني انابيت هذا القصر » .

بعد عرض هذه النماذج من الكتابات الارامية من بعض ما تبقى من اثار قديمة ، يمكن لنا ان نتبع تطور اللغة الارامية فنلاحظ ما احرزته هذه اللغة من درجة عالية من النضج يكونها لغة للكتابة وللادب حتى استطاعت ان تعيش وان تستمر على البقاء بعد سقوط الدول الارامية في اواخر القرن الثامن حتى انها فرضت نفسها على فاتحيها المتعاقبين . .

فبعد ان كانت الدول الارامية تستخدم الاكدية الاشورية الى جانب الارامية في القرن التاسع ، كما يبرهن على ذلك نص ادد يسعي (١٦) ملك جوزانا المكتشف في تل حلف على الخابور . . ، نجد اتجاهها لاستخدام الادارة الاشورية نفسها للارامية الى جانب اللغة الاشورية . وهذا ما يؤكد ان الدولة الاشورية في عهد الامبراطورية الحديثة لم تعد منذ اواسط القرن الثامن دولة احادية الهوية ، بل اصبحت دولة ثنائية الهوية . اشورية - ارامية (١٧) . . الى ان غدت الارامية وحدها لغة المجتمع الاشوري في القرون اللاحقة .

فالاراميون على اثرهم من هزيمتهم العسكرية ، ومن سقوطهم سياسيا وتقوض اركان دولهم المستقلة ، لم يختفوا عن مسرح التاريخ في المشرق القديم ، لان السياسة التي اتبعها ملوك اشور في نقل السكان من اجل اخماد المقاومة والقضاء على الثورات الناشئة ضدهم كانت سياسة ذات حدين ، لانها ادت الى نقل افواج عديدة من الاراميين الى قلب نينوى وآشور ، حيث عاش الاراميون مع الاشوريين جنبا الى جنب وقامت بين الطرفين اوثق الصلات وامتن العلاقات وبخاصة في ميدان التجارة . واذا ما كان الامر كذلك فهل يستغرب العثور على اعداد وفيرة من الوثائق الاقتصادية مهيورة بالارامية الى جانب الاشورية المسمارية في القرن السابع (١٨) . .

اننا نرى ان لهذه الظاهرة دلالتها التي نحاول ان نتبعها فيما يلي :

لقد تلاقى على ارض سورية نظامان للكتابة : نظام الكتابة المسمارية ، ونظام الكتابة الابجدية . وفي حين تقدمت المسمارية الى سورية في الالفين الثالث والثاني ق.م (م. ماري وابلا والاخ . .) حتى تطورت المقطعية الى المسمارية الابجدية في اوجاريت حيث توقفت بنهاية المدينة ، تقدمت الابجدية الجبيلية وازاحت نظام الكتابة للكنعانية الفينيقية ثم

الارامية . لقد اخذت الارامية تراجم الاكدية البابلية الاشورية حتى احتلت محلها لانها كانت لغة عملية وكتابتها بسيطة . وكان الانتقال من استخدام الكتابة المسمارية ، بعلاماتها التي تعد بالمئات ، الى الابجدية المؤلفة من بضعة وعشرين حرفا ، من أعظم المراحل الفاصلة في تاريخ الفكر والحضارة . لهذا اوضحت الكتابة الارامية هي المفضلة عند رجال الاعمال والتجار والموظفين وغيرهم ، الذين وجدوا فيها الاداة المثالية للتسجيل والتوثيق ، فتقدمت الى موقعها الجديد لتقف جنبا الى جنب مع الاكدية والمسمارية لا لكتابة النصوص الاقتصادية وحسب بل لكتابة نصوص تاريخية ونذرية:

من النصوص الارامية التي تقدم لنا صورة عن لغة ذلك العصر (الكلداني) هذا النص من نقش جنزي عشر عليه في نيرب (١٩) عند مدخل من مداخل حلب ، من القرن السادس ق.م . يقول :

« سين اجبر ، (سين يحمي) كاهن شهر (القمر) في نيرب ، هاهي صورتي ،

لصدقي قبله اسماني اسما طيبا واطال ايام حياتي .

يوم موتي لم يحرم فمي من الكلام ،

وبعيني كنت ارى بجلاء ،

وبكاني اولاد من الجيل الرابع من احفادي ، ونحبوا بدمع سخين .

لكنهم لم يدفنوا معي اشياء من الفضة او من النحاس ،

بملابسي وحدها ارقدونني ، حتى لا ينش احد فيما بعد قبري ..

ولتكن من تكون ، ان اسأت الي او تسببت في ما يؤذيني ..

فليمتك شهر ونكال ونسكو اشنع ميتة .

ولتهلك ذريتك » .

كان اكبر تغيير في العصر الكلداني تقدم اللغة الارامية لا في بابل وحدها بل في كل انحاء المملكة البابلية الحديثة الكلدانية التي غلب فيها الاراميون ودخلت ارض الرافدين والشام قبائل عربية كثيرة باعداد كثيفة .

ولقد عشر بين انقراض بابل على حجارة تاسيسية من زمن نبوخذ نصر الملك الفاتح البابلي والمصلح ، تحمل كتابة مزدوجة بخط مسماري وبخط ارامي . ففي ذلك العصر اوضحت الارامية لغة الدبلوماسية في كل الشرق العربي بعد الاكدية - البابلية ، واخذت

تتطور لتصبح لغة دولية بل لغة عامة للمشرق العربي القديم كله وهو دور لم تصل اليه لا اللغة المصرية ولا الفينيقية . . فقد وجدت وثيقة هامة هي رسالة دبلوماسيّة أرسلها أحد ملوك الفينيقيين الى فرعون مصر ، ومعنى هذا ان كتابا يتقنون الارامية كانوا يعملون في البلاط الفينيقي كما كان يوجد في البلاط المصري الفرعوني كتاب اراميون . وهكذا ورثت الارامية دور الاكديّة لتكون لغة التفاهم والخطاب العامة ولتحتل المركز الاول بين لغات المنطقة ، ولتحتفظ بهذا الدور قرونا الى ان حلب العربية في هذا الدور .

وعندما استولى قوروش ملك فارس على بابل واسقط الامبراطورية البابلية . بقيت اللغة الارامية المظهر الباقي من التراث الحضاري السابق ، وفرضت لغة بابل وحلب ودمشق نفسها لغة للامبراطورية (٢٠) الشاملة الفارسية الاخيمنية ، لغة لمملكة عظمى امتدت من برقة ووادي النيل والمتوسط الى السند والهند وشملت شعوباً واقواماً مختلفة اللسنة متعددة اللغات ، كانت الدولة بحاجة الى لغة تسهل التعامل فيما بينها وبين هذه الشعوب ، والاتصال بين الولايات في التجارة والادارة . هكذا كانت الارامية وهي الاكثر انتشاراً بين كل لغات الامبراطورية هي المؤهلة للقيام بهذا الدور . ولم يكن يوسع لغة اخرى منافستها . وقد لخص الاستاذ أندره كاكوف في محاضراته الافتتاحية في الكوليج دوفرانس (٢١) انوضع اللغوي والثقافي في المشرق العربي خلال تلك المرحلة من الالف الاول ق.م موجزاً بمقولة خطيرة مفادها انه « بينما حمل الكنعانيون الفينيقيون لغتهم وحضارتهم الى المغرب واسبانيا وجعل الاراميون من لغتهم امبراطورية ظلت العبرية لغة كانتون محدود » .

ان هذه الآرامية التي انتشرت منذ القرن الخامس ق.م ، آرامية الامبراطورية ، تركت وثائق متنوعة عثر عليها في بابل وآسية الصغرى وشمال جزيرة العرب وفي فلسطين ومصر . واهم هذه الوثائق وأوفرها عدداً هي التي عثر عليها في مصر ومنها مجموعة من الرسائل الادارية التي وجهها الحاكم الفارسي (ارسام) من سوزا وبابل الى كبار الموظفين في مصر باللغة الآرامية (٢٢) .

اما ينبغي قوله بالحاح فهو ان لغة هذه الوثائق في كل هذه المناطق ومن اي بلد اتت تمثل وحدة لغوية واضحة ، وحدة لم تعرفها المنطقة من قبل بهذه الدرجة من الاتساع والشمول . . ذلك ان وجود حكومة مركزية ساعد على تأييد استخدام لغة واحدة . كانت الدولة تعد الكتاب (الكاتب = سفرا بالآرامية) الذين يتخرجون في مدارس لها نظام واحد ومنهج تعليمي موحد ، وتفرض في كل ولايات الدولة أسلوباً في الانشاء والتعبير يستند الى قواعد نحوية واملائية موحدة .

حتى ان جاليات يهودية وجدت في تلك الفترة في مصر استخدمت الارامية في مكاتباتها ومراسلاتها . ويؤكد الاستاذ أندره دويون - سومر ان لغة الوثائق التي عثر عليها في ملفات البردي والخاف في قبلة عند أسوان والتي تعود الى القرنين السادس والخامس ق.م ، انما هي الارامية ، ولا يوجد اي اثر للعبرية (٢٢) في لغة هذه النصوص .

ومن هذه النصوص ، الرسالة التي وجهها اُخبار واعيان الجالية اليهودية الى الادارة الفارسية في فلسطين (٢٣)م وجواب الادارة عليها بشأن ما اصاب المعبد اليهودي في قبلة الواقعة في صعيد مصر . وجاء في الشكوى ان المصريين اغتصموا فرصة غياب الحاكم الفارسي ارسام ، فاستمالوا الى جانب الموظفين الفرس وهاجموا اليهود وقبلوا المعبد اليهودي في قبلة راسا على عقب . ويطلب مقدمو العريضة بالتعويض . ويعتبر الباحثون هذه الرسالة نموذجا ممتازا للنثر الارامي في العصر الفارسي . ولكنها من وجهة نظر المؤرخ تعتبر وثيقة هامة تعكس موقف المجتمع المصري من اليهودية وهو موقف لا يتفق ابدا مع موقف هذا المجتمع من عقائد المجتمع الارامي المقيم في أسوان وهرموبوليس ومنفيس .

وفيما يلي الترجمة العربية للرسالة التي وجهها بالارامية اُخبار واعيان الجالية اليهودية الى الادارة الفارسية في فلسطين .

« الى مولانا باجوهي حاكم اليهودية من عبيدك يدونيا (عطا الله) ورفاقه اُخبار كنيس قبلة .

عليك سلام ربنا ، وليحطك اله السماء بمزيد من عنايته الكريمة ابدا . وليرفع قدرك عند الملك . أطال الاله حياتك ! ولتشمك السعادة والمسرة دائما ! وبعد . يعرض يدونيا ورفاقه ما يلي :

في شهر تموز من العام ١٤ للملك داريوس ، عندما غادر الحاكم ارسام ليحظى بمقابلة الملك تأمر كهنة الرب جنوب (خنوم) في حصن قبلة مع فيدرانج الذي كان حاكما هنا ، وقالوا « يجب ان يزال من هنا معبد الاله يهو في حصن قبلة » . عندئذ فيدرانج المجرم ارسل رسالة الى ابنه نفايان الذي كان قائد حامية في حصن أسوان تتضمن مايلي : « ليهدم المعبد في حصن قبلة ! » عندئذ قام نفايان بقيادة جماعة من المصريين مع الجنود والمساعدين . وصلوا الى حصن قبلة بأسلحتهم . وهدموا المعبد وسووه بالارض وحطموا اعمدته الحجرية ، وخمس بوابات حجرية من

الحجر المقطوع وبواباتها الخشبية الشعرية المتينة المصفحة بالصفير (البرونز) والسقف المبني بخشب الارز . كل هذا مع اشياء اخرى مما كان في المكان جعل طعما لليران . أما الاواني الذهبية والفضية والاشياء الاخرى التي كانت في المعبد فقد اخذوها واستملكوها .

انه منذ ايام ملوك مصر بنى اجدادنا هذا المعبد في حصن فيلة . وعندما دخل قمبيز الى مصر وجد هذا المعبد عامرا . وقد دمرت كل معابد الهة مصر . ولكن احدا لم يجرؤ على تسبیب ادنى اذى لهذا المعبد .

وعندما حدث ما حدث ، فاننا مع نساءنا واطفالنا لبسنا اثوابنا الخشنة ووضع كل منا نفسه في كيسه ، وصحنا وتوجهنا بالدعاء الى يهو رب السماء .

والان ، خدامك يدونيا ورفاقه وكل يهود فيلة يقولون مايلى : اذا اراد سيدنا فليفكر بهذا المعبد ليعاد بناؤه ، لانهم لا يدعوننا نعيد بناءه . انظر الى اصدقائك والى محظيك الموجودين هنا في مصر ! لترسل اليهم رسالة بشأن معبد يهو هذا تامرهم فيها باعادة بنائه كما كان من قبل ! وعندئذ ستقدم الاضاحي والنجور والمحارق على مذبح الاله يهو باسمك ! ونصلي لاجلك الى الابد نحن ونساؤنا واطفالنا هنا . .

في ٢٠ من شهر مرحسون من العام ١٧ للملك داريوس . . .» .

٢ - قصة احيقار وحكمته ؛ موضوع القصة وأصولها الاولى :

اما اهم عمل ادبي حقيقي معروف حتى الان بالارامية القديمة ، اي قبل المسيحية . فهو قصة احي يقر (احيقار) (٢٤) ، الشخصية الارامية البارزة في الدولة الاشورية . فما هو موضوع هذه القصة وما هو اصلها ؟ موضوع القصة قديم ومتكرر في آداب الشرق الادنى القديم ، يدور حول تكريم بطل القصة المخلص للملك والدولة ومكافاته على قيامه باعمال باهرة . . وهو يذكرنا بقصة سنو حي في مصر (٢٥) التي تعود الى الالف الثاني ق.م . . اما القصة الاشورية الارامية فتعود الى القرن السابع . ويعتبر النص الارامي الذي عثر عليه في جزيرة فيلة ، هو الاقدم لكنه غير تام وتنقصه اجزاء كثيرة ، وهو يعكس الاصل المسماري-الاشوري كما يؤكد غرولو (٢٦) . ويستند ليو اوبنهايم الى دراسة نشرها فان داك لرقيم مسماري لتأييد الحقيقة التاريخية لشخصية احيقار (٢٧) وان نسجت حولها خيوط صورة اسطورية ، وهو أمر مألوف في الادب الرافدي كما في ملحمة جلجاميش وقصة ادايا (٢٨) . ملحمة

جلجامش معروفة ، اما ادايا فهو بطل قصة رافدية باسمه خلاصتها انه رجل هو من الراحلين الفانين مثل جلجامش ، لكنه من اصل الهى كأبطال الاساطير الاغريقية .. وكما اضحى جلجامش رمزا خالدا بين الفانين ، اضحى ادايا احكم الحكماء بين الناس .

عثر على قصة ادايا في لوح مسماري كان يستخدم لتعليم الاكديّة المسمارية للكتاب في مصر في عصر العمارنة (من اواسط الالف الثاني ق.م) وقد عثر على نصف منها في الواح مكسورة من مكتبة آشور بانيبال (من اواخر القرن السابع ق.م) ..

تقول القصة ، قصة ادايا التي يحتمل ان تكون اساس قصة احي يقر ، انه عندما كسر ادايا حارس مدينة اريدو المتمتع بحماية إيا ، الرياح القادمة من الجنوب التي حولت اتجاه مركب الصيد الذي كان يقوده ، دعي للمثول امام الرب آنو رب السماء للدفاع عن نفسه لاقترافه جريمته ..

نصح إيا ادايا بان لا يتناول طعاما او شرابا يقدم اليه في السماء لان إيا يعرف ان لدى الآلهة طعاما يؤدي الى الموت والفناء . لانعرف نهاية قصة ادايا لكن يعرف من تقاليد العقائد السومرية ان الاله آنو (رب السماء) اكرمه وتلاميذه السحرة في اريدو فاعطوا قوة خارقة لمقاومة المرض والاشباح فاضحى ادايا الساحر الاكبر (اشيسو) بين السحرة الكبار (أبكالو) . اما الصيغ السحرية المنسوبة الى ممثلي هذه القوى الالهية فقد صارت تكتب بعدئذ على شكل تماثم تعلق في البيوت لحمايتها من الارواح الشريرة .

فمن العودة الى هذه الاصول تتبين لنا مع اريكا رينر E. Reiner الجذور العميقة لقصة احيقار الحكيم وتتضح صورة الوزير الارامي ومغزى تجربته . ومن هذه النصوص المسمارية يفهم انه في زمن الملك اسرحدون ملك آشور وجدت في البلاط شخصية باسم ابا-انليل-داري ، والاحلامو الاراميون يسمونه اخواقر . فالاصل الارامي لآخي يقر واضح ومؤكد لكنه اضطر الى اتخاذ اسم آشوري لتسهيل دخوله في البلاط الاشوري . اما اصل موضوع القصة فهو سومري اكدي .. ثم اضحت شخصية الرجل محورا لقصة واحداث وحكم زيدت اليه والحققت به عبر العصور حتى وصلت اصدااء شهرته الى الغرب عن طريق العالم الهليني باسم ايسوب ، وهو مؤلف خرافات باللغة اليونانية من اصل فريجي من آسية الصغرى عاش في القرن السادس ق.م . ويرجع الدارسون قصته وحكمته الى اصول مشرقية تتصل بقصة آخي يقر (احيقار) وحكمته .. وما من شك في ان خرافات ايسوب المقتبسة عن آخي يقر هي مما اوحى بخرافات لافونتين المعروفة في الادب الفرنسي ..

لنسمع هذه الحكاية من أحيي يقر : يصادف فهد عنزة وهي ترتجف من البرد فيقول لها : تعالي اغطيك بجلدي . تجيب العنزة : لماذا انا يا سيدي ! لا تأخذ مني جلدي لانه ليس من المألوف ان تحيي الفهود الظباء الا لكي تعلق دمها !.

أليس في مثل هذه الحكاية القصيرة وامثالها بذور كليلة ودمنة ... وخرافات لافونتين ؟.

وكان مؤلف الخرافات الاغريقي بابريوس Babrius قد نظم كثيرا من خرافات ايسوب في القرن الثاني الميلادي، وكتب وهو يتذكر اصولها القديمة قائلا : ان الخرافة هي من عمل السوريين الذين كانوا يعيشون تحت حكم نينوس (اي نينوى) وبعل (المعبود آنذاك) لكن اول من رواها للهلينيين هو ايسوب الحكيم .

ففي هذه الاشارة ما يدل على الاصول الاكديّة الاشورية لقصة احيي يقر التي نقلت الى اللغة الارامية ، وهي اللغة التي اوضحت من اللغات العالمية عندما انتشرت منذ العصر الفارسي من الهند الى المتوسط .

ثم في تاريخ الادب الكلاسيكي يذكر ان الكاتب اللاتيني فيدر Phédre (القرن الاول م) هو الذي ادخل خرافات ايسوبيوس الى الادب اللاتيني الروماني بعد ادخال كثير من التعديل عليها وتحميلها معان وتعاليم تربوية اخلاقية ..

ويشير الاستاذ دويون - سومر (٢٩) اخيرا الى انه في قصة احيي يقر كما سردها ماكسيم بلانود في العصور الوسطى يضحي نادين في القصة انر والملك سنحريب ليكروس . ولكن على الرغم من التغيير الطفيف فان العودة الى اصول القصة تبرز الاساس الاكدي الارامي لعمل الكاتب الاغريقي ايسوب .

إننا نستطيع ان نأخذ فكرة عن هذا الاثر الادبي الارامي ولكن من المستحيل حتى الان اعادة تكوين الاثر كما كان في روعته الاولى لما لحقه من تحريف وتغيير وتعديل بانتقاله الى لغات اخرى سوى اليونانية واللاتينية . اذ نجد صدى القصة في سفر طوبيا ثم بطبيعة الحال في السريانية وريثة الارامية القديمة .

٤ - خلاصة قصة احيي يقر (٣٠) :

كان احيي يقر رجلا حكيما وفاضلا من حكماء الاراميين .. لم يكن له ولد، وكان نادين ابن اخته فحدث نفسه قائلا : « سأخذ ولدا » . كان الحكيم مستشار ملك اشور سن اخي ايبا = سنحريب ثم اشور اخي إدّينا = اسرحدون .

يتحدث احيقار عن نادين مرددا ما في نفسه : « ها انني رجل شيخ ، فمن سيكون لي ولدا ليكون من بعدي كاتباً وحاملاً لاختام الملك اسرحدون ملك اشور كما كنت انا للملك سنحريب ابيه ملك اشور ؟ » .

يجيب بنفسه قائلاً :

« بعدئذ ، انا احيقار اتخذت نادين ابن اختي ولداً . ربيته وعلمته واغدقت الاحسان عليه ، رافقته الى باب القصر واوصلته الى الملك ليمثل امامه وهو بين افراد حاشيته . قدمته لاسرحدون ملك اشور . اختبره الملك بأسئلة عن الحكمة فأجاب من كل ما سئل عنه . احبه اسرحدون ملك اشور ورضى عنه وقال : « لتعمر حياة الكاتب الحكيم مستشار اشور كلها الذي اوصل ابنه ، بل ليس ابنه هو ، ابن اخته . » . يضيع حديث احيقار المباشر بعد ذلك لكن قصة احيقار رمت من مصادر سريانية لتواترها فيها كما يلي :

لقد استطاع الوزير الشيخ اقناع الملك بخلافة ابنه المتنبى نادين له في مهامه متعهدا بتعليمه حكمته وتجربته وخبرته . وهنا تاتي الحكم والاقتوال التي فاه بها احييقر ، وسنعرض امثلة منها فيما بعد ، اما تنمة القصة فهي كما يلي :

« ما ان استقر نادين الشاب في منصبه حتى خان اياه الطبيب ، فوشى به عند الملك بتهم مختلفة اغضبت الملك الذي امر بقتله . لكن الضابط الجلاد نابوسوم يسكن ، الذي كان احييقر ولي نعمته ، وفر حياة الحكيم البريء واعدم بدلاً عنه مجرماً كان يحتفظ به في السجن . ندم الملك بعد ذلك على تسرعه ، وكان بحاجة الى عقل احييقر وحكمته لايجاد مخرج من موقف حرج وضعه فيه فرعون مصر . اعترف الجلاد عندئذ بخدعته فأحضر احييقر للمثول امام الملك ، وبفضله استطاع الملك الاشوري أن يرد على تحدي الملك المصري بمسائل سأله عنها وان ينتصر . اما نادين الناصر للجميل فقد اقي في غياهب السجن وبقي فيه الى ان مات . » .

موضوع القصة هو كما نرى العقاب العادل للجاحد الناصر للجميل ، والخاتمة الطيبة والاكرام والاجلال للعالم المخلص الحكيم .

وقد ألحقت بالحكاية مجموعة من الحكم وجهها احييقر الى نادين ليعلمه قبل ان يخلفه ، ثم ليؤنبه بعد انكشاف امره وسقوطه .

٥ - حكمة احيقار (٢١)

هذه بعض حكم وأقوال احييقر الماثورة ، ومنها ما ترك ولا شك اثره في آداب الامم ،

وبخاصة في الادب التوراتي ، وفي الحكايات والخرافات الى ان نقلت الى آداب شعوب البحر المتوسط ، ونستطيع ان نسمع ترداد اصداؤها في ادبنا العربي وفي تراثه الغزير من الامثال والحكم والاقوال المأثورة .

في التربية يقول :

« لا توفر على ابنك ضرب العصا ، فانك لن تستطيع بدونها ان تقيه من الشر » .
« إن ضربتك يا بني فلن تموت ، ولكنني ان تركتك على هواك فلن تعيش » .

ليس هذا ما نجده في سفر الامثال (٢٣ : ١٢-١٤) : « وجه قلبك الى الادب واذنيك الى كلمات المعرفة . لا تمنع التأديب عن الولد . لانك ان ضربته بعصا لا يموت . تضربه أنت بعصا فتتقذ نفسه من الهاوية » .

وفي آداب الكلام يوصي بحسن الاستماع وبالحدز وكنم السر والكلام في اوانه . يقول احيقار :

« لاتخمد جذوة كلام الملك ، سيكون كلامه شفاء لعظامك » . ونجد في سفر الامثال (٢٤ : ١٦) « الكلام الحسن شهد غسل حلو للنفس وشفاء للعظام » ويقول : « يا بني ! لاتكن ثرثارا فتبوح بكل ما يرد على خاطرك لان العيون والاذان في كل مكان متجهة الى الافواه ، وكن حذرا فان صنت لسانك سلمت » .

وفي امثالنا : « لسانك حصانك ان صنته صانك وان خنته خانك » .
ويقول ايضا : .

« راقب فمك وصن ما سمعت في قلب اسم لان الكلام كالعصفور ان انطلق من بين يديك لن تسترده ابدا » .

« لا تكشف سر لك حتى للصديق لكي لا يكون اسمك سخرية » .

« الاناء الطيب يحفظ الكلمة الطيبة ، لكن الاناء المكسور يسرب ما فيه » .

الانجد المعنى واللفظ في القول العربي المأثور : « الاناء ينضح بما فيه » .

وينهى احيقار عن مصاحبة الاشرار محذرا من خبايا السرائر : « لا يعرف احد ما في قلب صاحبه ، فان ما رأى امرؤ امراً اخر تافها فليحذره . ليبعد عن طريقه ولا يتعامل معه . هذا ما يفعله الانسان الطيب مع الخبيث » .

وفي السياسة والدبلوماسية والسلام والحرب يوصي قائلا :

« انسج الاعيب فمك ثم اعرض مقاصدك في الوقت المناسب لان حيلة القم اقوى من حيلة الحرب » .

الا انه ينهي عن الافتراء والاثم : « يابني تحقق باذنيك كل ما تسمع لان نجاة الانسان في اخلاصه وصدقه اما مايقبحه فهو الافتراء على شفتيه » .

ويضيف الحكيم : « السيف يعكر صفو المياه الهادئة بين الجيران » .

لكنه يوصي بالاعتدال : « لا تكن شديد الحلاوة فتؤكل ، ولا تكن شديد المرارة فتقذف » (لا تكن صلبا فتكسر ولا لينا فتعصر) .

ويستنكر العدوان والاعتداء قائلا :

« لا تشد قوسك ولا تصوب سهمك الى الانسان الصالح مخافة ان يؤيده الاله فيرتد السهم عليك » .

ويضيف بحكمة فيها خلاصة فلسفة **الجبر والاختيار** قائلا :

« لئن شددت القوس ووجهت السهم الى انسان صالح فالسهم منك لكن حركته من الالهة » .

وبشهادة يتباهى حكيم ارام بنجدة المستجير قائلا :

« رفعت القش وحملت النخالة لكنني لم اجد اخف حملا من المستجير الدخيل » .

ويتحدث عن **الفقر والفنى والعمل** فيقول :

« رفعت الرمل وحملت الملح لكنني لم اجد اثقل من الدائن » .

ويؤكد فكرته بقوله :

« يا بني ان كان الدين باهظا والدائن خسيسا فلا تعاقد عليه ! ولكن ان عاقدت على دين فلا ترتج لك نفس حتى تفي بكل ما عليك ! الدين مريح ان كان قصير الاجل ، لكن الوفاء به يعادل محتوى البيت ! »

ويعبر عن استنكاره للفقر :

« ذقت المر حتى العلقم لكن لم اجد اشد مرارة من الفقر » .

لكنه يحث على العمل ناصحا بالسعي في سبيل العيش : « احسبر انت يابني !

إذن احصد اي حصاد ! واصنع اي صنيع استطعت ، عندئذ ستأكل وستشبع وتعطي لاطفالك ! » .

وهو يوصي بعمل كل انسان ما هو مؤهل له :

« لا توجه العربي (البدوي) الى البحر ولا الصيدوني الى الصحراء لان لكل شأنه »

وبهذا المعنى يقول عاموس :

هل تركض الخيل على الصخر او يحرث عليه بالبقر (١٢ : ٦) .

وينهي الفني عن الاغترار بثروته :

« لا تفتر بثروتك ولا تمل مع هوى قلبك » .

« ولا يقل الفني ابدا انني مشهور لاني ثري » ..

ويحدث نفسه مناجيا شاكيا ما حل به من بلاء :

« إن كان شقائي مني انا نفسي فممن ابتغي انصافي » . ثم يعترف رغم علمه وحكمته بجهله عندما يتحدث عن الانسان : « عديدة هي نجوم السماء التي لا تعرف اسمائها ! كذلك هو الانسان لا يعرفه أحد ! » .

اليست هي عين الحكمة على معبد دلفي : « اعرف نفسك ! » اليس هذا ما قاله سوفوكليس ايضا :

« ما اكثر عجائب هذا العالم وما اكثر غرائبه ، لكن ليس أعجب ولا اغرب من الانسان ! » .

ولعل حكيم المعرة قد تجاوز حكيم آرام مطلقا في البيت الرائع : اتحسب انك جرم صغير وفيك استوى العالم الاكبر ؟ ..

خاتمة :

عند قدوم الهلنيين الى الشرق مع جيوش الاسكندر المقدوني انتهى دور الارامية الرسمي بحلول اليونانية محلها لغة للثقافة والادارة . وبفقدان الارامية للعامل الاساسي في وحدتها مع انهيار الادارة الفارسية المركزية، اخذت تنتصر العوامل المحلية والاقليمية فانقسمت الارامية وتفرعت الى لهجات بالكلام واساليب الكتابة والخط . لكن ميدان

انتشارها بقي واسعا جدا بعد ان اوضحت لغة اليهودية الى جانب العبرية واكتسبت مكانة مقدسة بعد ان اوضحت الارامية السريانية لغة المسيح وحواريه وتلاميذه . وقد وقع الفتح العربي في وقت كان فيه الادب اليراني في اقصى درجات تطوره ، واستمر ازدهاره في الحضارة العربية حتى القرن العاشر . ونستطيع ان نقول ان حركة انسانية Humanisme عربية سبقت انسانية الغرب بقرون قامت في دمشق وبغداد ومدن المشرق العربي حلب والرقه وحران وطرابلس وانطاكية على اساس الاتصال بالعلوم والمعارف التي قدمتها الحضارات القديمة ، وكانت السريانية التي احتفظت بدور مواز للعربية في الاوساط العليا الفكرية أداة الاتصال الى ان اخذت العربية تنتصر بالتدريج لتصبح لغة المحادثة والحياة العامة قبل ان تصبح لغة التعليم والكتابة والتأليف للسريان وغيرهم (٢٢) . واستمر هذا التراجع متباطئا حتى القرن الرابع عشر ، لكنه تسارع حتى القرن السابع عشر ، فانهضت السريانية في بعض المناطق مثل معلولا وجبعدين وبخعة وبعض مناطق الجزيرة العليا وطور عابدين ، وتوقف الانتاج الادبي الارامي تقريبا لتبقى بقايا الارامية لغة طقسية تردد اصداء ثقافة عريقة وحضارة قديمة .

هكذا كان دور اللغة الارامية ودور ادبها التاريخي جسرا عريضا مديدا اتصل بالعربية وثقافتها الحية المتجددة القائمة منذ قرون.

الحواشي :

- (١) ومنها نماذج فارسية مترجمة الى الارامية عشر عليها بين ملفات فيلة في مصر .
انظر :
- A. Cowley (ed.) , *Aramaic Papyri of the fifth century B.C.* (Oxford, 1923) , 204 - 248 .
- (٢) مار اغناطيوس افرايم برصوم ، الالفاظ السريانية في المعاجم العربية (دمشق ١٩٤٨-١٩٥١) .
- (٣) سفر التكوين ، ١١ : ٢٨-٢٢ ، ٢١ : ١٧-٢٠ ، ٢٩ : ١ .
- (٤) حول تفرع الاراميين من الاخلامو :
- J. A. Brinkman, *A Political History of Post - Kassite Babilonia 1158-722* (Rom 1968) .
- (٥) تتبع طريق حملات تكلات بلاصر الاول ، راجع :
- J. Starcky, *Palmyre, l'Orient ancien illustré* , (Paris 1952) , 28.
- (٦) انظر مراحل الصراع في:
- P. Garelli, V.Nikoprowetzky, *Le Proche - Orient Asiatique II*, (Paris P.U.F. 1974), P. 110.
- (٧) A. Abou Assaf, P.Bordreuil, A.R. Millard, *La statue de Tell Fekheryé et son inscription bilingue assiro - araméenne* (Editions Recherches sur les civilisations, (Paris 1928) , cahier No 7.
- (٨) انظر مثلا :
- H.Farzat, « Encore sur le mot TQm » *Semitica*, (Paris 1968).
- (٩) A. Dupont-Sommer, « Littérature araméenne » *Histoire des Littératures I*, (Pléade, Paris 1955) ,P. 633
- (١٠) انظر : معمود العبادي ، مخطوطات البحر الميت (عمان ١٩٦٧) .
- (١١) انظر النص بالارامية في :
- John C.L. Gibson, *Textbook of Syrian Semitic Inscription. vol. II*, (Oxford 1975) p. 8.
- (١٢) الترجمة الى العربية من عمل مؤلف البحث .
- (١٣) انظر النص بالارامية في نقش سفيرة الاول (السطور ١٤-٢٠) ، راجع الطبعة الاساس :
- A. Dupont - Sommer , et J. Starcky, *Les inscriptions araméennes de Sefire*, (Paris 1958) pp. 4-5.

ايضا :

- H. Donner-W. Rollig, *Kanaanäische u. Aramäische Inschriften* (Otto Harrassowitz. Wiesbaden 1973), p. 238, No 222-224.
- H Donner-W. Rollig, *KAI*, II. No 215,9-15; (١٤)
- idem*, No 216. (١٥)
- Abou Assaf et Bordreuil et Millard, *Op. Cit.* (١٦)
- انظر : (١٧)
- A. Lemaire et J.M.Durand , *Les inscriptions Araméennes de Sefiré et l'Assyrie de Shamshi Ilu*, (Paris 1984).
- L. Delaporte, *La Mesopotamie, l'Evolution de l'Humanité*, (Paris 1923); *Epigraphes Araméennes* (Paris 1912), p. 23. (١٨)
- KAI*, 226; J.Gibson, *Op. eit.*, No 19,p.79. (١٩)
- F. Altheim, R.Stiehl, *Die Araber in der Alten Welt*, Ier Band, (Berlin 1964), « Aramaisch als Weltsprache » , PP. 181 - 236. (٢٠)
- A. Caquot, *"Leçon Inaugural"*, (Collège de France 1972) . (٢١)
- انظر هذه الرسائل في : (٢٢)
- G. R. Driver, *Aramic Documents of the fifth century B.C.* (Oxford 1954), 1957.
- وانظر دراسات بورتن وغرولو (بالانكليزية والفرنسية) :
- B.Porten , *Archives from Elephantine* (Berkeley 1968) ; P. Grelot , *Documents Araméennes d'Egypte*, (Paris 1972).
- A. Dupont-Sommer, *La Littérature araméenne*, *Op. Cit.* (٢٣)
- idem*. (٢٣م)
- جورج حداد « حكمة الوزير احيقار وانثرا في الادب العالمي » مجلة الحوليات الاترية السورية ، دمشق ١٩٥١ ، ص ١٠ - ٢٨ . كان الدكتور حداد من اوائل من نبه في اللغة العربية الى أهمية احيقار في الادب الارامي والاداب العالمية .
- G. Lefébvre, *Romans et Contes Egyptiens de l'Epoque Pharaonique*, (Paris 1949); (٢٦)
- وبالعربية انظر ايضا : جون ولسون (ترجمة احمد فخري) ، الحضارة المصرية ، القاهرة. ١٩٦٠.
- J. A. Wilson, dans *ANET*, pp; 412-424.
- P. Grelot, *Documents Araméennes d'Egypte*, pp. 427 - 429.
- راجع حول الاصل السماوي لقصة احيقار : (٢٧)
- J. Van Dijke, *Afo* (Archiv für Orientforschung) 1939, pp. 215-218;

J. C. Greenfield, JAOS (Journ. of the Am.Or.Society),1962, P.293ss.

L. Oppenheim, **La Mésopotamie** (Paris 1970) = **Ancient Mésopotamia** (1964) P. 380.

(٢٨)

R.Labat **Les Religions du Proche-Orient**, (Paris 1970) .

وحول القصة انظر :

L. Oppenheim, **La Mésopotamie** p. 274 et n.46 p.380.

A.D.S., « Litterature araméenne » Histoire des Litteratures, p.642.

(٢٩)

انظر النص في الانكليزية وفي الفرنسية في :

(٣٠)

Cowly, **Op. Cit.**, pp.204 ff.; P. Grelot, D.A.E. **Op. Cit.** ; A.Dupont - Sommer, **Op. Cit.**

انظر المراجع السابقة نفسها . تعريب حكم احيقار هنا هي من عمل المؤلف .

(٣١)

انظر الدراسة للباحث محمد عبد الحميد حمد ، ، مار ديونيسيوس التلمحري ، من وقائع الندوة الدولية لتاريخ الرقة واثارها ، ١٩٨١ ، منشورات المديرية العامة للآثار والمتاحف .

(٣٢)